

في ليلة العيد* ... للأستاذ علي الطنطاوي

يا أيها الغافلون ... إن هذا العيد ليس لنا .
إن أعيادنا مخبوءة في ثنايا الماضي
الفخم ، ومطاوي المستقبل المنتظر .
« علي »

مشيت ليلة العيد في حاجر للعبال ، فتأخرت في السوق ،
فرسكبت (الترام رقم ١) لأروح الى الدار ، فكان مجلسي
فيه قبالة شيخ سام رازم ، عظيم اللحية ، كأن رأسه ولحيته ثغامة
بيضاء ، زرى الهيبة ، رث الثياب ... فأشرت إليه بالتحية
وابتسمت له ، فلا والله ما طرف ولا تحرك ولا أتني إلى بالأ ،
فجملت أعجب منه ، وأحاول أن أذكر من هو ، وابن رأيت هذا
الوجه ، فلا أدري أين لقبته ولا أعرف من هو . ولا أستطيع أن
أميز هذه الصورة من بين المئات من الصور التي اختلطت في
نفسى وانطمست وضلت عن أصحابها ، ولسكنى كنت على مثل
اليقين بأن لي بهذه الصورة عهداً ... فلما بلغنا الدرويشية رأيت
الشيخ يتحسس عصاه وبصره عالق بي ، فأدرت أنه أعمى
وانه ينظر بعين قاعة ، (١) وعلمت سر امتناعه من رد السلام .
فربت له واشققت عليه ، فلما سقط على العسا اعتبد عليها ،
فقام بتلس الطريق ، فهاجتي الفضول وأثارتنى الشفقة فقامت
أبعه ، فإذا هو ينزل من الترام فيميل عن الجادة ، ويتجنب
هذه البني الجديدة ويتلقل في تيك الخرائب ، بضرب فيها
على غير هدى ، وأنا أتبعه مقبلاً متألماً ، أكره هذه الظلمة الداجية ،
وهذه الخرائب الموحشة ، وأزعم العودة فلا تطيب نفسى
بفراق هذا الشيخ وتركه يتخبط وحيداً في هذه الجاهل ، فتعوذت
بالله « من شر فاسق إذا وقب » ودنوت منه غيبته وسألته :
- أتريد مساعدة يا عم ؟

- قال : جزاك الله خيراً يا بني ... فمن أنت ؟

- قلت : عابر سبيل رآك فأحب مساعدتك

قال : أحسن الله إليك ... قل لي : أين نحن ؟

(*) لا يضمن في يوم أحد من الفراء انى أصف شخصاً بيته ، أو أسرة
بناتها ، فلست اكتب تاريخاً ، ولسكنى أكتب قصة
(١) العين الناعمة من التي ذهب بصرها ، وبقيت حدتها سالمة ،

- قلت : في خرائب الدرويشية
قال : أعرف ذلك ... هل وازينا القلعة ؟
- قلت : نعم

قال : هل ترى قوسين كبيرين قائمين وسط هذه الأطلال ؟

- قلت : نعم . . . هذه دار آل ه ...

- قال : أتعرفها ؟ (وبكى)

قلت : نعم أعرفها . فمالك تبكى يا عم ؟

قال : تلك والله دارى يا بنى

فلما قالها صمعت وذكرت أين لقيت هذا الرجل ، وعرفت
من هو . ولكن ما بال هذه الشيبة ، ما هذه العسا ، ما هذه
التياب ؟ ما الذى أناخ عليه فهذا شيا به ؟ أى سهم من سهام الدهر
أصمى بصره ؟ حرت وحزنت ولسكنى نجاهلت وقلت :

- دارك أنت يا عم ؟

- قال : إى والله يا بنى . . . ألم تسمع بها ؟ لقد كانت من
أجل دور دمشق . لقد كان من تحت هاتين القوسين قاعة من
أفخم القاعات ، يؤمها السباح من أوروبا وأمريكا ليروها
ويعجبوا بما فيها . لقد كان فيها بركة مصنوعة من ألف وثلثمائة
قطعة صغيرة من الأحجار اللوثة . . . لقد دفموا الى في سقفها
الخشي ثمانية آلاف دينار . . . ولكن ما قاعة الكلام ؟ لقد
خسرت ما هو أعز علي منها : زوجتى وأولادى . . .

(وانطلق يبكي بكاء موحجاً)

لقد كان ذلك ليلة العيد ، في مثل هذه الليلة . . . وكنا قد
ذقنا في رمضان الأسرين من الخوف والرعب ، وكنا كأننا في
ساحة حرب : بينما نحن جالسون آمنون ، إذا بالرصاص يصفر ،
وإذا هى المعركة : يهجم عشرون من الثوار ، فيطردون جيشاً
فيلجئون الى القلعة ويضطرون الى الاعتصام بمجندرها ، ويؤوبون
وقد غنموا ما شاءوا من مجد ومال وعتاد ، فيخرج أولئك ،
فيبتخرون بالساحة (يطلبون الحرب وخدم والنزال) ، وتنطلق
أفواه المدافع تلقى خطب البطولة على النساء والأطفال :

أسد على وفي الحروب نامة فتخاء تنفر من صفيير الصائر
هلاً برزت الى غزالة فى الرغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

آه يا بنى . لا تلمنى إذا بكيت وأذهب البكاء بصرى ، فقد
سحقت المصيبة قابى . . . كان ذلك ليلة العيد ، وكانت الدار

إلى العباسية وأولبيا وتاجادا فقتلوه . . . آه يا بني إنهم لا يقتلون بالقنابل والرصاص والسيوف والخناجر إلا قليلاً ، ولكنهم يقتلون دائماً ، يقتلون الأمم بالحانات والقينات (الأرتستات) والأزياء والمدارس والقوانين . . .

وأدرك الشيخ المعجزُ فهوى إلى الأرض وهو يبكي ويشمق ، وأن نفسه لتكاد تخرج في شهقة من شهقائه

كانت الأنوار تشع من العباسية ، وأولبيا ، وتاجادا ، والأمير ، وراديو ، وروكسي ، وهذه الملاعب الخشبية التي أقاموها على أطلال الدرويشية والسجقदार احتفالاً بالعيد ، وكانت أصوات الموسيقى ، ورنات الضحك ، وصيحات الفرح تشق سكون هذا الليل . . .

وكان الشيخ يجود بنفسه على أنقاض دمشق لا يدري به أحد

أما الشمب التاكل فكان يرقص على رفات الشهداء ، أما الشمب فقد كان يفرح بالعيد

على الطنطاري



تضحك سروراً ، وترقص بهجة ؛ وكان الأطفال ينتظرون مدافع العيد ، ليفرحوا ويمرحوا ، وبأخذوا عيدياتهم . . . فلما انطلقت هتف الأطفال ، وصاح النساء ، وابتمس الرجال ، ولكن . . . آه من لكن . . . لقد هدت (لكن) كياني ؛ لقد

طمست بصري ؛ لقد جعلتني قبراً يمضي ، ولكن هذا السرور لم يدم ؛ ولم تكن إلا لحظة حتى استحال الهتاف بكاء ، والصياح ولولة ، والابتسام حيرة وجزعاً . لم تكن مدافع العيد ، بل كانت مدافع الموت نزلت على أجمال دار في دمشق ، وأهناً أسرة فيها ، جعلت هذه الأسرة موزعة بين الموت والشقاء ، وهذه الدار مقسمة بين النار والدماء ، ثم أنجحت العاصفة ، فإذا هذه الدنيا الناعمة المريضة تل من التراب . . .

لقد حزنا وجزعنا ، ولم ندر ماذا نصنع ، حملت الأم طفلها الرضيع ، وأمسكت بطفلها الآخر ، وكادت تنجو لولا أن طالفة الأمومة قد عادت بها لتنقذ سائر أولادها ، فسدت النار سبيلها فابتغت سبيلاً غيره ، فاستقبلها اللب ، فماتت هي وأولادها ، يلقيهم كفن من لسان النار الأحمر . . .

أما أنا وولدي الشاب — رحمة الله على شبابه . . . آه ! — أما نحن فما زلنا نجوء ونذهب ، نحاول أن تنقذ هذا ونخلص هذه ، حتى حملنا الجميع وكدنا نجو ، بل لقد نجوت أنا ، وتلفت لأراه خال بيننا اللب ، ورأيتة يشير إلى بسلام المودع ثم يسقط صريخاً . . .

لم ينج إلا أنا وولدي الصغير ، وليته لم ينج ، ولكن ماذنيه هو ؟ إنه برى ، إنه نشأ على الفضيلة والعفاف ، وربى على الاستقامة والشرف ، فكان أكل التلاميذ خافاً وأجلهم خلقاً ، وأقومهم سيرة ، وأكثرهم اجتهاداً ؛ لم يعرف قط إلا طريق المدرسة ، حتى إذا وقعت الواقعة لم يع على نفسه إلا وهو يدور في الأسواق ليلاً بازار النوم ، فاستحيا وجزع وعاد إلى الدار . . . فلم يجد داراً ، وجد بقعة من جهنم وقودها الناس والحجارة ، فارتد هائماً على وجهه ، وكان ذلك آخر عهدي به

لقد نسي من بعد هذه الفترة من حياته ، نسي أباه المفجوع وأمه الشهيد ، وأخاه القليل ، وأهله المرعى ، واستقر في نفسه أنه مخلوق نبت من الأرض ، بين سوق علي باشا ، والسوق العتيق ، وشارع النصر ، وميدان المرجة ، ثم قادوه بمد إلى معابد الرذيلة ، إلى مذابح الأخلاق ، إلى هذه المزابل القنطرة ،